وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الثاني

تألمت سلمى كثيرا بعد زوال تأثير المخدر وزاد من ألمها أنهـا نقلـت مـن غرفتها إلى غرفة المتعبات.

كانت الغرفة واحدة من صف طويل من الغرف في وسط البناء، لكـل منهـا نافذة واحدة تطل على الحرش المرتفع الذي يحجب عنها النور.. وتبـدو معتمـة وهواؤها غير نقي وأسرّتها وكوميدينتها غير مرتبة أو نظيفة.. ولقد كـان هـذا الصف من الغرف مقرا للمتعبات، أو ممن أقعدهن المرض وارتفاع الحرارة عـن القيام بأي مجهود.. وأحسّت سلمى بالكآبة تخنقها وهي تجيل عينيهـا بمريـضات الغرفة اللواتي بلغ بهن المرض مبلغا تعسا.. فهناك امرأة كهلة قد ترهـل بطنهـا كأنما هو كعكة ضخمة محمّرة لطول ما تعرضت للشمس.. والطبيب قربها يسحب لها من الماء الملون.. وقبالتها فتاة محجوبة بستار، تصدر صيحات عنيفة.. لقـد علمت سلمى فيما بعد أنها مصابة بحمى المناجيد في رأسها، ولقد بـات شـفاؤها مستحيلا.. وكانت هناك فتاتان أخريتان معروقتان لا تكفان عن السعال.. وقـرب النافذة سرير فارغ دفعت مؤخرته بمكعبات من الخشب.. والتفتت الممرضة إلـى سلمى قائلة:

- هنا مكانك!..
- لماذا نقلت إلى هنا؟..
- إنها أوامر الراهبة..
- ولكني كنت مرتاحة في غرفتي، ولقد انسجمت مع زميلاتي فلماذا تنقلني؟..
- ارتاحي الآن.. وكلمي الراهبة بعد ذلك..
- لن أرتاح.. أخبريها أنني سأموت لو بقيت في هذه الغرفة.. أريد أن أرجع إلى سريري..

واجتمع على سلمى شعور الوهن والقهر فأخذت بالبكاء..

وذهبت ليلى ونادت الراهبة، فجاءت على عجل مقطبة الحاجبين.. كانت مـن النوع الطيب السريع الاحتداد، وعندما يثور غضبها تتصرف كالمجـانين.. ولقـد نقلت من قسم الرجال إثر مشادة بينها وبيت أحد المرضى.. لقد ثارت في وجهه إذ طلب المزيد من أكلة يحبها، فما كان منه إلا أن قذفها بصحن الطعام وهو يشتم.. ولقد طرد المريض المسكين بسببها ونقلت هي..

دخلت الراهبة وفي حركاتها وارتجاف ذقتها استعداد لمعركة:

- هيا اخلعي ثيابك.. ونامي في سريرك!..

وأمعنت سلمى النظر إليها خلال دموعها دون أن تتحـرك.. وهـدر صـوت الراهبة:

- ما هذا العناد؟.. قلت لك اخلعي ثيابك.. هيا اخلعي ثيابك!..

وهال سلمى أن تعامل بمثل هذه اللهجة العنيفة ولمّا يمض على إجرائها للعملية ربع ساعة.. أهذه هي الراهبة التي يدعونها بملاك الرحمة؟..

أذعنت سلمى لقد خشيت أن تهان.. وماذا يفعل المريض الموهن أمام جبروت الأصحاء؟.. وشعرت بالغثيان ورأسها يدور وارتمـت برغمهـا علـى الـسرير تنتحب.. وأبت أن تذوق طعاما طيلة ذلك اليوم.. ولما سألتها الراهبة عن ذلك في دورتها المسائية، أجابتها وهي تشيح بوجهها:

- لست أشتهي..

وكانت إقدام زميلتها في الغرفة السابقة قد تربعت على طرف السرير، فأمرتها الراهبة أن تعود إلى غرفتها..

ولم تذق سلمى طعاما في اليوم التالي، ولم يفد ملاطفة الممرضة لها بـشيء، فعادت بالصحون ملآى إلى المطعم.. ولم تمض فترة طويلة حتى جاءت الراهبـة تحمل باقة زهر، وضعتها في كوب على كوميدينة سلمى.. وقالت بلطف:

- عندما تنخفض حرارتك سأنقلك إلى غرفة أخرى..

- لا أريد غرفة أخرى.. أريد أن أعود إلى سريري..

- كما تحبين..

عادت سلمى إلى بشاشتها وأخذت تجاذب زميلاتها في الغرفة أطراف الحديث..

كان الوقت ظهرا، وقبالتها فتاة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، لم يبـق النحول على شيء يسمى وسامة في وجهها، ولكن المتأمل يلمح جمالا ذوى فـي البشرة الناصعة الصفراء والعينين الكحيلتين الجامدتين..

نظرت الفتاة إلى الطعام أمامها باشمئزاز وقالت:

- لست أشتهي شيئا.. كنت أجد لقطعة الخبز والبصل لذة.. أما الآن فلست أشتهي شيئا..

وكان على صحنها قطع من اللحم المشوي، فأمسكت بقطعة بـين إصـبعيها وأردفت:

- لقد اشتهيت اللحم المشوي يوما.. كانت له رائحة عنيفة أحسست معها أنه لـو قيل لي أن فيه سمّا لرضيت أن آكله وأموت.. لقد جاء به أبي إلى أخـي الأكبـر المريض حين رآه أشرف على الموت، وجلسنا نحن حوله ننظر إليه، أنا وإخوتي السبعة.. لم نكن قد ذقنا لحما طوال العام.. ولما رآنا أبي على هذه الصورة طردنا إلى صحن الجامع.. كنا نسكن غرفة في الجامع ويعمل أبي مؤذنـا فيـه.. ولمـا علمت أن أخي توفي، كان أول خاطر خطر لي، هل تراه أبقى قطعة لحم؟.. ولكن لم يكن قد أبقى سوى قطعة خبز ملوثة بالدهن، رحنـا نتخاطفهـا فـوق أخينـا المسجّى..

كانت الفتاة تتحدث دون أن تدمع.. لم يبق الشقاء في عينيها دمعة تذرفها:

- كتب علينا أن نموت جميعا بهذا المرض.. لقد ماتت به أمي من قبل، ثم أخـي الأكبر وتبعه أخي الذي يصغرني بعامين وسأموت أنا..

- لا تيأسي من رحمة الله!..

- لقد فشلت الإبرة الهوائية وعملية رفع الرئة وعملية الأضلاع.. أتحسبيني أبالي كثيرا بالموت؟.. لست أتمنى سوى أن أرى أبي وإخوتي الباقين، ولكنني أعلـم أن هذا مستحيل..

- ربما تحسّن حال أبيك في غيابك، فلم لا تبعثين له برسالة ليحضر؟..أتحبين أن أكتبها لك؟..

- إنني هنا منذ أربع سنوات، ولم أستلم منه رسالة أو فرنكا.. أكان يفعل ذلك لو كان معه ما يمكنه الإستغناء عنه؟.. لو لم يأت بي سائق بالمجان إلى هنـا أشـفق على حال والدي وحالي لما كنت وصلت المصح..

- هكذا تحدثت الفتاة ذلك النهار فملأت بالأسى قلب سلمى.. كان قلب الـصغيرة يحدثها بدنو أجلها فلم يمض يومان حتى أخذت الممرضة تحجب الفتاة المـسكينة بستار إذ أخذت تنزف وعند الصباح كان سريرها فارغا..

بقيت سلمى في تلك الغرفة شهران لا تبارح سريرها المائل إلـى الـوراء، وتصرف الوقت في المطالعة.. لقد رجت ساعي بريد المصح أحمد، وهو شـاب ناقه مهذب طويل القامة أسمر اللون يتكلم اللهجة العراقية، أن يأتيها بقائمة للكتـب التي تحويها مكتبة المصح، وأخذت تطالع لتصرف شبح الموت الذي يخيم علـى الغرفة الكئيبة..

صمت صوت الفتاة التي كانت تصارع المناجيد، وارتسم جزع رهيـب فـي عيني المرأة الكهلة حين نصحتها الراهبة أن تستحضر لها الأب فيلار للاعتراف.. ولما دهنت بالزيت المقدس تحول الجزع إلى استسلام محزن وصمت مطلق، ولم تنبس بشفة إلا حين حضر أبناؤها الثلاثة، فراحت تهمس لهم بشيء بينمـا كـانوا يرهفون السمع ووجوههم تتشنج بالبكاء..

كانت سلمى تقرأ في كتاب "مانون ليسكو" فرمته من يدها دون أن تتحرك من فراشها وتنهدت بعمق.. إن في نفسها قلقا لا يهدئه قراءة مثل هـذه الروايـات.. وأخذت ترتجف تحت الأغطية وهي تستدير نحو النافذة.. كان النهار مثلجا وعلى الطريق فتيات ناقهات، يتقاذفن كومات الثلج، فأنبتهن الراهبـة وأجبـرتهن علـى الدخول.. وراحت سلمى تسائل نفسها:

- هل موت الناس قبل أوانهم أمر طبيعي؟.. وبدا لها الأمر يكمن وراءه مأسـاة إجتماعية كبيرة.. وعزّز في نفسها هذا الرأي حين ناداها الطبيب المتمـرّن إلـى مكتبه، وراح يطرح عليها أسئلة كثيرة يستوضح فيها عن وضـعها الاجتمـاعي، ويسجّل في دفتر كبير.. لقد سألته حينذاك فيما إذا كان للمجتمع يد في تلك المأساة فأجاب:

- لا شك في هذا.. إن هذا المرض نتيجة وضع اجتماعي فاسد.. لوأتيح لكل فرد أن يعيش في منزل صحي، وينال غذاء كافيا، لما كان للمرض وجود.. إنه دائمـا حليف البؤس والشقاء والحروب، والإنسانية تخسر من ضحايا هذا المرض بـأكثر مما تخسره في الحروب..

في ذلك اليوم سألت ساعي البريد أحمد، وهو شاب ناقه طويل القامـة أسمر البشرة أسود الشعر ذكي العينين، في أن يأتيها بكتب تبحث في النظم الاجتماعية السائدة في العالم، فنظر إليها مليا ثم ارتسمت على شفتيه بسمة صغيرة وقال:

- المكتبة هنا فقيرة وكل ما فيها كتب استغنى عنها المرضـى بعـد شـفائهم أو موتهم.. ولكن لي صديق أظن أن لديه ما تحتاجين إليه..

* * *